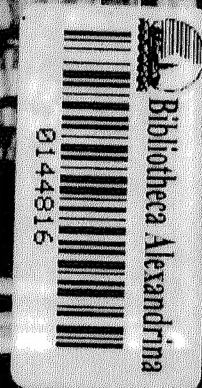


الشجر الأعظم على الأندلس في عصر المرابطين

تأليف
الدكتور حسين مؤنس

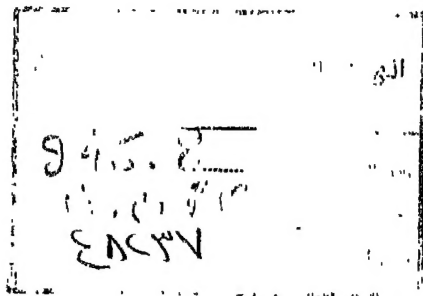


دار المعارف

الشجر الأعظم على الأندلس في عصر المرابطين

وسقوط سرقطة في يد النصارى سنة ١١٨٢ هـ / ١١٨٨ م
مع أربع وثائق جديدة

تأليف
الدكتور حسين مؤنس



١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م - General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

«الشجر الأعلى» الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للكتور حسين مؤنس

عثر على الوثائق التي أنشرها في ذيل هذا البحث
مصدر الوثائق في مخطوطين عربيين داني عليهما زميلي وصديقي
عبد العزيز الأهواني في مكتبة «ديرسان لورنزو» بالأسكوريال ، يحمل
أولها رقم ٤٨٨ والثاني رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية . وراجعت ما كتب عنهما
في فهرس المخطوطات العربية الذي وضعه الراهب الأوغسطيني اللباني
« ميخائيل الغزيري » بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

CASIRI: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*, Madrid,
1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذي وضعه « ديرنبورج » فلم أجد فيهما إلا أن هذين
المخطوطين يضمنان نماذج من النثر الفني الأندلسي في عهدي المرابطين
والموحدين ^(١) .

وعندما أخذت في دراسة هذه « النماذج » ، تبينت أنها تضم عدداً
طيباً من « صور » وثائق هامة تتصل بتاريخ « المرابطين » و « الموحدين »
في الأندلس ، وتبينت بعد قليل أن المادة التاريخية في الكثير منها جيدة
جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف الى معلوماتنا طائفة طيبة

(١) راجع فهرس الغزيري المشار إليه تحت رقمي DXVI (ص ١٥١) ورقم
DXXXV بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقم المذكورين أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغربيتين المجيدتين اللتين
لا نجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس
معرفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية
تقلاً صحيحاً أميناً ، لأننا نجد في صفحة ١٢٠ من المخطوط الأول شهادة
بصحة هذه الصور صادرة عن عالين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيى
ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدي المعروف بابن الشلوبين أو الشلوبيني .
ونص العبارة هو :

« قرأت أبعاض جميع ما تقيد فوق هذا ، ومنها ما أكلته ، وسمعت
أبعاض ذلك ، ومنها ما كل سماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ أبي علي عمر بن محمد
ابن عمر بن عبد الله الأزدي الشهير بابن الشلوبين ، رضى الله عنه ، وأجاز لي
ما فاتني منها في روايته ، وناولني السفر بكليته ، وأباح لي ما في روايته منه ،
والإسناد إليه فيه ، والله ينفعه بذلك » .

« قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى
ابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ،
وفقه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلحاً على نبيه الكريم وعلى آله » .
« وذلك كله في عقب شهر ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستائة » .
« المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدي في التاريخ » .
ومما يدل على أن النسخة التي بين أيدينا هي التي راجعها « ابن الشلوبين »
بنفسه أن اسمه وارد في السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك في ذاته
أمر عظيم القيمة ^(١) .

ثم إننا سنلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق
تأييداً تاماً .

(١) ظاهر من هذه العبارة أن مخطوطتنا أصلية وأنها ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ .
مما يزيد في قيمتها . وهي مكتوبة بخط مغربي غير القراءة في مواضع كثيرة ، ولكنها
في حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب واثاق هذين المخطوطين ودراستهما تمهيداً لنشرها ، ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تتفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت في الصفحات التالية أربع واثاق تتعلق بموضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التي انتصر فيها المرابطون على جيوش الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة في شوال سنة ٥٠١هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨م و (الثاني) وقوع سرقسطة في أيدي الفونس الأول ملك أرغون وقشتالة وليون في ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . واستغاثة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البديعية ، فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لابد من مقدمة تاريخية عن المرابطين في الأندلس وتاريخ « الثغر الأعلى » الأندلسي في عصرهم حتى تتضح الاشارات التاريخية الواردة في الوثائق ، وحتى يكون من الممكن الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتني كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث هي نماذج للنثر الأندلسي في صورة من أزهى صوره ، ولا غرابة في ذلك ، فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلصة وابن أبي الحصال يعينون ذروة من ذرى البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم في هذا الباب إلا قلائل في المشرق والمغرب .

يعتبر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) المرابطون في الأندلس عصر اليقظة الأخيرة في تاريخ الأندلس الاسلامي ، عصر الصحوة الذي سبق عصور الاضمحلال المتصل التي تبدأ من أول القرن السابع الهجري ، وهي صحوة قصيرة عنيفة سبقتها إرهابات أنبأت عن عود الاسلام الأندلسي إلى النصر والعزة بعد ذلك الانكماش المستمر الذي عاياه طوال القرن الخامس الهجري عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية . ومن هذه الارهابات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاقة » الذي أحرزته القوات المرابطية الأندلسية في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة في يد الفونس السادس ملك قشتالة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إذ انا بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الغزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيراً مما فقدته المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الإسلامية من مجرى « الوادي الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تنوشها وتحاول استعادتها ، وبدأ بوضوح أن جبهة الاسلام في « شرق الأندلس » لن تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيد القمبيطور على بلنسية (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيه ١٠٩٤)^(١) ويهدد نواحي سرقسطة ومرسية وبلاد الشرق كلها . وعند ما توفي يوسف بن تاشفين في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ترك لابنه علي بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله : « وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملك جميع بلاد الأندلس شرقاً وغرباً ، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة ، وخطب له على ألني منبر ونيف وثلاثمائة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملك قد توطد والأمور قد استقامت »^(٢) .

وقد أساء « دوزي » الحكم على علي بن يوسف كما أساء الحكم على المرابطين عامة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها الهوى أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب »^(٣) وما زال يلح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لاعلم ولا أدب ولا رفاة

(١) محمد الروايات الإسلامية تواريخ مختلفة لسقوط هذا البلد ؛ ولكن تحديد اس الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقها : الحلة السراء ، ص ١٨٩ ؛ وانظر مناقشة

دوزي للتواريخ : Dozy, Recherches, II. pp. 198-199 sqq.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة نورنبرج ١٨٤٣) ص ١٠٢

(٣) راجع رأي عبد الواحد المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »

(طبعة القاهرة ١٩١٤) صفحات : ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦

ولارخاء^(١). مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسي الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بطائفة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفي أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجدد ، وابن القبطونية ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون^(٢) ، ومروان بن أبي الخصال الذي يكاد يكون أعظم ناثر عرفه الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندي^(٣) ، ويكفي أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا الوليد بن رشد^(٤) ، وأبا العلاء بن زهر^(٥) ، كانوا من أصحاب علي وجلسائه وقد أشرف الثاني منهما على تربية ابنه تميم ، وكان أشبه بالوصي عليه أثناء إقامته في قرطبة نائباً عن أبيه في حكم الأندلس^(٦). وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تضيق معها آثار انتصار « الزلافة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد في استنقاذها من آثار الفوضى التي شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير اللطيف الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حري بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد ، فعول على خلعهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدى رجال من المرابطين^(٧) . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، واستفتى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

(١) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2^e éd.) p 155

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ٩٤

(٣) ابن الأبار ، الحلة السراء (طبعة دوزي) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، لمؤلف مجهول (طبعة

علوش ١٩٣٦) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ ، والمقرئ ، نفح الطيب (طبعة أوروبا) ج ١ ص ٢٨٧

وانظر المناقشات الطويلة التي يوردها صاحب الحلال الموشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة في المخطوط الذي أخذت منه الوثائق التي أنشرها هنا ، ص ١٧٤

من المخطوط رقم ٤٨٩

(٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم^(١) بل يذهب ابن خلكان وابن خلدون إلى أنه كتب إلى فقهاء المشرق — وفي مقدمتهم الغزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتوه بضرورة تخليص الأندلس من أمرائها هؤلاء. ويفهم من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف ابن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طامعاً فيها من أول الأمر^(٢)، ولكن الغالب أن فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبتت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيتهم وتقصيرهم في معاونته جيوشه أثناء النضال مع النصاري، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصاري على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة^(٣)، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحذر، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري أصحاب غرناطة، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية. ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركاً قائده «سير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما يدهم من البلاد والحصون، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور، فلم يفته عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود^(٤)، وعاد ما بقي من الأندلس الإسلامي موحداً من جديد بيد الأمير المرابطي سير بن أبي بكر الذي اتخذ قرطبة مركز أعماله^(٥)، وهكذا عاد هذا البلد إلى مركزه الممتاز بين البلاد بعد أن فقدته طوال عصر ملوك الطوائف.

(١) ابن خلدون، العبر، (طبعة يولاق) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) انظر: المراكشي، المعجب، ص ٧٤

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٨٧، Dozy, *Musulmans d'Espagne*: III, 139 وراجع التفاصيل التي يوردها لبني بروفنسال عن علاقات المعتمد بن عباد مع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة في مقال:

La "Mora Zaida" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, ds: *Hesperis* XVIII, 1934, pp. 1-8.

(٤) المراكشي، المعجب، ص ٧٥ وما يليها. وابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلل الموشية، ص ٥٩

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذى وضعه يوسف بن تاشفين
لحكومة الأندلس ، والمعلومات التى لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ،
وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشؤون المدنية بيد الأندلسيين
كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشؤون الحرب والدفاع ^(١) ، وكان
النائب عن يوسف بن تاشفين فى حكومة الأندلس قائد عسكري هو سير بن أبى بكر ،
ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ^(٢) ، وكان
التفاتته كله موجهاً الى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد
معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل الممتونية ، وسيكون لبعضهم
من أمثال أبى عبد الله بن الحاج وأبى زكريا بن واسينو وجرور الحشمى ،
وأبى عبد الله مزدلى شأن عظيم فى الحروب مع النصارى فى الأندلس ،
ولم تكن القوة العسكرية التى وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ،
فقد قدرها صاحب « الحلل الموشية » بسبعة عشر ألف فارس « موزعة
على أقطار معلومة ، يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف وبقرطبة ألف فارس ،
وفى المشرق أربعة آلاف فارس ، وباقى العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة
فى الحصون المصاوبة للعدو » ^(٣) وليس من المعقول أن تكون هذه هى عدة
الجيش المرابطى المقيم فى الأندلس ، لأننا نرى عشرات الألوف من جنودهم
فى كل ناحية ، والمنطق أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب
هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجلة . وقد كسب المرابطون برجالتهم
المنظمة القوية كل انتصاراتهم الكبرى فى الأندلس ^(٤) . ولأسنا فهم السر
فى أن يوسف اختص ناحية إشبيلية بسبعة آلاف مع أن الخطر عليها

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلل
الموشية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ — ٦٩

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٧

(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، وفى النص أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلاً فى : الروض المطار فى خبر الأقطار
لابن عبد المنعم الجبرى (طبعة لى بروفنسال ، القاهرة) مادة زلاقة ، وهو الأصل
الذى أخذ عنه المقرئ وعبد الواحد المراكشى . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة أقالش
فى وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسيما ، أما الخطر الحقيقي فكان على قرطبة وإقليمها ، أى ناحية الوسط ، ومع ذلك خفصتها من الحامية لم ترد على ألف فارس ، وكان الشرق في ذلك الحين أكثر النواحي استهدافا للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس فحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك في أنه كانت ترسل إليها عند اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلي من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن تاشفين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبي جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فما الذي حدا به إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفترق عن المعتمد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس في كثير ؟ لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نلقي نظرة على الحالة العامة في هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الإسلامية الذي كان يعرف « بالثغر الأعلى » .

الثغر الأعلى وسرقسطة عند ما انقرط عقد الخلافة الأموية على رأس المائة في عصر المرابطين الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبي عامر يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيى ، وكان فارساً جلدأ ذا خبرة ودراية بأمور هذا الثغر المتطرف من بلاد المسلمين^(١) ، وكانت بينه وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات وتر موصولة ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان في نفس الوقت سيداً متبوعاً للكثيرين من أشرف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضى والحصون بهذه النواحي الجبلية الوعرة^(٢) ، فلما مات في سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيى بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سنن أبيه ، وابتعد بنفسه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث (طبعة ليني بروفسال)
 من ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام (طبعة ليني بروفسال سنة ١٩٣٤)
 من ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ وانظر الخريطة المرفقة لتعرف حدود الثغر الأعلى .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذى ساد الأندلس كلها فى تلك السنوات ، فسلمت له بلاده ، وأقام فى دعة لا يكاد ملوك أرغون يدبرون له شرا حتى مات سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م^(١) ، وخلفه ابنه المنذر فأقام فى الامارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، فبدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القصى يتزعزع ، وبدأت أطماع أمراء أرغون وأكناد برشلونة تتجه نحو سرقسطة وأقليمها ، وكان هذا الإقليم يضم حوض «إبره» الأعلى كله ، وفيه من الحصون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أيوب» و«دروقة» و«وشقة» و«بربشتر» و«مدينة سالم» و«لوجرونيو» Logroño و«صورية» Soria و«ترويل» Tercel و«إفراغة» Praga^(٢) وكان بهذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً ، وكان أهل هذا الاقليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون فى ظل هذه الأسرة فى رخاء وأمن .

وكان من بين أتباع «بنى يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع فى أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليمنية ، هى أسرة «بنى هود» وكانت تملك مدينتي «لارده» و«تطيلة» Tudola ، وكان يمثلها فى ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود ، فلم يكده يلمح خلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثب من حصنه ودخلها بأتباعه وحاز الاقليم كله ، وتلقب «بالمستعين بالله» على نحو ما كان يفعل معاصروه من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)^(٣) ، وأصبحت «دولة بنى هود» فى سرقسطة والنغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانبا ، واستطاعت أن تحول بين الامارات النصرانية فى هذا الركن الشمالى الشرقى وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث فى «الموسطة» (إقليم طليطلة) و«الغرب» (إقليم بطليوس وماردة) .

(١) انظر التفاصيل التى يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى

مع جيرانهما من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ فى :

Dozy : *Recherches*, I. pp. XXXIV sqq.

(٢) الحلال الموشية ، ص ٦٠ وقد اكملت هذه القائمة من كتاب :

PRIETO VIVES, *Los Reyes de Tayfas* (Madrid, 1926), p. 46.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام ،

ولم يكن الخطر النصراني على الأندلس الاسلامي من هذه
 بنو هود الناحية بعيداً ولا قليلاً في ذلك الحين ، فقد كانت حدود
 إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً ،
 وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ
 الأندلس أمير قوى طامع في زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الذاخرة ،
 فكانت تصاقبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هي : كوثنية « قطلونية »
 يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بيرنجير الثاني
 (١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) وملكة أرغون . وكان يحكمها راميرو الأول
 (١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) وكان لا يكف عن اجتياح حدود سرقسطة وانتهاك
 ما يصل اليه من أرضها ، وبين هاتين المملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين
 هما باليارس (Pallars) وشرطانية (Cardaia) وسيقف صاحبها إرمنجول
 الثالث (Ermengol III) ورامن (Ramon) الى جوار قطلونية وأرغون
 فيما يلي من الاحداث . أما في الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بحدود
 مملكة نبرة (Navarra) وكان ملكها غرسية الثاني (Garcia II)
 (١٠٣٥ — ١٠٥٤ م) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون (Leon)
 أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدّها خطراً على المسلمين في ذلك الحين ،
 وسيكون للملك إذ ذاك فرناندو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥ م) وأولاده
 من بعده حصّة الأسد في تراث الأندلس الاسلامي ، وكان من حسن حظ
 إمارة سرقسطة وبلاد شرق الأندلس كلها أن كل جهود ملوك ليون ستنتج
 نحو إمارتي بطليوس وطليلة فترة طويلة من الزمان ^(١) .

ومن ثم كان العبء الملقى على أكتاف بني هود ثقيل لا يكاد ينهض به
 إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا يستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم النصراني
 موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا
 ببلادهم من الشر المحيق . بل ستراهم يقفون موقف الحياد عند ما يستولى
 ألفونس السادس ملك ليون على مملكة طليلة (سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٥ م)

BALBUENA: *Historia de España* (1927), II, pp. 295 sqq. (١)

وسيقفون الى جانب « السيد القنيطور » عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها
ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل .

وعند ما توفي أبوأيوب سليمان المستعين في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م استهدفت
إمارة سرقسطة لخطر جسيم ، إذ تقاسم بلادها أبناءه الأربعة ، وجعل كل منهم
ناحيته إمارة مستقلة ، فأنمرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بهمد الدولة
المقتدر بالله . واستقل أبو عمر يوسف بلاردة وتلقب بهمد الدولة المظفر ، وأخذ
محمد قلعة أيوب وتلقب بعرض الدولة ، أما الرابع ، المنذر ، فقد اكتفى بلقب الحاجب
وفاز بشطيطيّة وتسميه المراجع لب^(١) . وهي كلمة أندلسية معربة عن «لوبيو»
(lolo) الاسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحترّبون فيما بينهم ، واستمروا
على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقتدر بالله أن يستولى على ما كان بيد
أخويه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخاه يوسف حتى غلبه على بلاده
في أواخر أيامه حوالى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة
على يديه ، بل استطاع أن يضيف اليها أراضى جديدة انتزعها من جيرانه
النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م)
ودانية (سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٧٥ م) . وحاز جزءاً من كورة طركونة (Tarragona)
وأطرافاً من بنبونة (Pamplona) ونواحي من لقنت (Alicante) وبلنسية
وكان أصحابها في حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم^(٢) .

وأحمد المقتدر بالله هذا هو أقوى أمراء بنى هود وأوسعهم في تاريخ
فترة الطوائف ذكرآ بعد المعتمد بن عباد ، وليس الى الشك سبيل في أنه كان
أقدرهم على مغالبة شدائد هذه الفترة القاسية ، وأمرهم في النجاة ببلده وعرشه ،
وأجرأهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

(١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال
الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخرج بريتيو ييبس هذه التواريخ من النيات ، راجع بحثه القيم عن ملوك

الطوائف : Puerto Vives : Los Reyes de Taifa , pp. 47-49 .

في أيامه درة الاندلس الاسلامي ، فقد ابنتى فيها « قصر الجعفرية » الباقي الى اليوم وقصر الذهب الذي قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفي أحمد المقتدر بين سنتي ٤٧٤ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ و ١٠٨٢ م فانقسمت إمارة سرقسطة من جديد ، واقتسمها ابناه يوسف والمنذر ، فأما يوسف فقد تلقى بالحاجب المؤتمن ، واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الامارة كله ، وانفرد الثاني -- المنذر -- بطرطوشة ودانية والجزء الساحلي من الامارة ، وتلقب بالحاجب عماد الدولة ^(١) ، واستمرت الحرب بين الأخوين ، ولم ينجح أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، فقد نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود ، ومضى يحارب عمه المنذر ، وجعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصراني . وفي عهد يوسف هذا أقبل السيد القنيطور إلى سرقسطة لاجئاً إلى أميرها بعد أن نفاه القوننس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد إلى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه ، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بير بجير الثاني صاحب قطلونية هزيمة قاسية عند « المنارة » (Almenara) وقد وقع الكونت في أسر ابن هود في هذه الموقعة ، وكان لها أثر بعيد في تاريخ « السيّد » وشرق الأندلس كله بعد ذلك . وقد أقام السيد في سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر في نفسه وتكوينه ^(٢) ، ويبدو أن لقب « السيّد » الذي لزمه بعد ذلك طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنه كان يقود جنوداً من المسلمين ، فكانوا يتادونه « بياسيدي » ، فلما عاد إلى خدمة القوننس السادس لزمته هذه التسمية ، وصار جنده النصراني يتادونه بلفظي (mio Gid) .

وفي هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطمع في سرقسطة وبلاطها ، ولولا يقظة يوسف وأخيه وأهبيتهما للدفاع عن بلاطها في كل لحظة لضاعت الامارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

(٢) LEVI PROVENÇAL, *Le Cul de l'histoire dans l'Islam d'Occident* (٢) (Paris 1948), pp. 170 sqq.

وقشتالة، ويكفي أن نذكر حادثاً صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار: فقد كان أبو جعفر أحمد — الذي تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه، وأودعه أحد حصون روضة (Rueda)، وأقام الرجل سجيناً في ذلك الحصن بعد وفاة أخيه، فلما كانت أيام ابني أخيه هذا — يوسف وأحمد — فر من سجنه في أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م، وذهب يحتسب بالفونس السادس ملك قشتالة، ومات عنده بعد قليل، فزعم الفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبه الذي تغلب عليه، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمه رامير ونحور وروطة، وكاد البلديقع في أيديهم، لولا أن يوسف المؤمن وحليفه القنيطور وضعا للفونس ورجاله كميناً في خانق ضيق على الطريق، فلم يكادوا يتوسطونه حتى انتهات عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينج الفونس نفسه إلا بصعوبة^{١١}، وأراد «السيّد» أن يبرئ نفسه من تهمة الاشتراك في هذه المؤامرة، فرجع إلى الفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته. وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة الفونس وتطلعه لما في أيدي المسلمين، ويدلنا على يقظة يوسف المؤمن وشدة حذره، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب ومواقف فحسب، بل كان كفاح مؤامرات وحيل، ولو قد غفقت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لاجتلعها الفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م، دون كبير مشقة.

وتوفي يوسف المؤمن في ذلك العام، وصار الأمر في سرقسطة لابنه أحمد على ما قلناه، فتلقب بالمستعين، رضاعف الهمة في الحفاظ على ما بيده، ذلك أن أطاع الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيما جاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة. فعول على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها، واستعد أحمد المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب «البنسية»، واستمر الحصار حيناً، وتخرج مركز البلد ومن فيه،

PRILLO VIERA, *Los Reyes de Taifas*, p. 48.

(١١)

R. MONTAÑEZ PIDAL: *La España del Cid* (1929), II, p. 571.

ولم يتقدم إلا نزول المرابطين الأندلس^(١) في ذلك الحين ، فرفع ألفونس
الحصار وأسرع الى بلده لتحصينها . ثم كانت وقعة « الزلاقة » Sacrajas
في رجب ٤٧٩ هـ / سبتمبر ١٠٨٦ م وانهمز ألفونس تلك الهزيمة القاصمة
التي أبعدت خطره عن البلاد الاسلامية الأندلسية كلها الى حين^(٢) .

فلما استقر يوسف بن تاشفين في الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضونه
ويقدمون له المساعدات والألطف ، كان أحمد المستعين أكثرهم تقربا اليه . وعرف
يوسف حرج مركز المستعين وصعوبة موقفه أمام ملوك النصراري ، وانعقدت
بينهما أواصر صداقة سيكون لها أثر بعيد في مستقبل « سرقسطة » ، وحينما
سأت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم
واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ،
ليؤكد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ولأهله وإخلاصه لقضية الاسلام
في الجزيرة ، ولين له أنه يرى من تهمة التآمر مع النصراري على جيوش
المرابطين ، وكتب اليه كتابا ، وردّ عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا
المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وثقته من إخلاصه للمسلمين ،
ويؤمّنه على بلاده ويعده بالمعونة^(٣) . ولا نزاع في أن يوسف بن تاشفين قدّر
خطورة الدور الذي كان أمراء « سرقسطة » يقومون به في تلك الفترة الحافلة
بالمخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحائل بين إمارات النصراري وما يليها من بلاد
المسلمين في شرق الأندلس^(٤) ، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصراري

(١) أخبار الثغر الأعلى في هذه الفترة موجزة بإيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ،
فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع النصرانية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة
في ذلك الحين :

Primera Crónica General (éd. M. Pidal, 1906) p. 538 à sqq.
Annales Toledanos Primeros (*España Sagrada*, XXIII, p. 385 à sqq.
Historia Roderici apud : M. Pidal : *España del Cid*, op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠

Annales Complutenses en España Sagrada XXIII, p. 314.

(٣) ورد نص هذين الكتابين في صورتين لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا في ألفاظ

قليلة : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، الحلال المشوية ، ص ٦٠

(٤) هكذا قال المستعين بن هود في كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نص
كتابيه وإنما وردت خلاصته فقط في المرجعين المشار إليهما في الهامش السابق .

وعلاقات الولاء التي كانت تربطهم بهم بين الحين والحين . لم يحالفوا أحداً منهم على المسلمين ، ولم يقفوا من جيوش المرابطين موقف الحيانة والتقاعس الذي وقفته إشبيلية وغرناطة ومالقة أثناء الصراع العنيف الذي دار بينهم وبين النصارى على حصن « لبيط Alalá » بعد موقعة الزلاقة بقليل ^(١) .

وفي أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف انتهر شانجة راميرز (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إمارة سرقسطة هجوماً عنيفاً وانتزع منها منشون (Monson) سنة ٤٨١ أو ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، ثم تقدم فحاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فمضى ابنه « بدرو » الأول يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها في ذى حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر سنة ١٠٩٦ وقد دافع أحمد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى ^(٢) ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcoraz) التي انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنف الصراع الذي كان محتدماً خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مدائن سرقسطة والثغر الأعلى ، قال : « وفي سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضيقوا بها ، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقى الفريقان ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس الى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، فرفع ما كان به من المال ثم كر الى مقامه ، وأبلى الى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذى القعدة من العام . فقُفد من الناس ما يناهز اثني عشر ألفاً ، والتمس أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة » ^(٣) وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بحليفه ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

BALLESTROS : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى في ذلك الحين وهو غرسية أوردونيذ
(Guriu Orduniz) صاحب « نخرة Najera »^(١) .

واستشهد أحمد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حاسمة
دارت بينه وبين أرغون أيضاً^(٢)، وهي معركة فالتييرا (Faltierra)
(رجب ٥٠٣ / يناير ١١١٠)، وبوفاته فقدت سر قسطة آخر أمراء الكبار
الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التي أحدثت بالأندلس الاسلامى كله
في ذلك الحين ، ذلك أن ابنه الذى خلقه وهو عماد الدولة عد الملك لم يكن
من طرازه ولا من طراز جده المقتدر، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر
من اعتماد أبيه ، فنفرت رعيته منه ، وتخرج مركزه داخل بلاده . ومما زاد
في حرج مركزه اقتراب المرابطين من بلاده وميل أهل سر قسطة الى الدخول
في طاعتهم أملا في أن يقوموا بحمايتهم من جيرانهم النصارى^(٣) .

وقد استطردنا عن تتبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إمارة علي بن يوسف ،
واستقصينا أخبار سر قسطة حتى اقترابهم منها : فلنعد الآن إليهم لتتبع جهودهم
حتى نصل إلى تدخلهم الصريح في شئون سر قسطة . قلنا إن علي بن يوسف
لم يكد يستقر على عرش الدولة المرابطية حتى عبر الى الأندلس في نفس العام
الذى تولى فيه (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) . وكانت ظروف الملك والامارات
النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيماً خلال السنوات الأولى من القرن الثانى عشر
الميلادى (السادس الهجرى) : توفى ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد
موقعة الزلاقة بعام واحد، وخلفته ابنته الدونيا أوركا (D^a Urraca) فانحسر
الخطر المستمر الذى كان يهدد المسلمين من هذه الناحية ، وتوفي كذلك الكونت
هنرى البرغونى (Enrique de Borgona) صاحب كونتية البرتغال ، الذى كان
يهدد غرب الأندلس كله وخلفته ابنته الدونيا تيريزا (D^a Teresa) ، ولم يعد
الخطر ليهتد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشمالية الشرقية حيث ظلت الحرب

P. VIVES : Los Reyes de Tarras, p. 49 (١)

P. VIVES, Los Reyes de Tarras, p. 49 ٢٠٢ ابن الخطيب، أعمال الأعظم، ص ٢٠٢ (٢)

ابن الخطيب ، أعمال الأعظم ، ص ٢٠٢ (٣)

مستعرة يقودها أميران نصرانيان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) صاحب أرغون ورامون بيرنجير الثالث (Ramon Berenger III) صاحب قطلونية^(١) ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتركوا الحبهة الشمالية الغربية التي شغلتهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قواهم إلى شرق الأندلس الذي كانت الاخطار تهدده كما رأينا .

أقام عليّ بن يوسف أخاه « أنا الطاهر تيمّا » حاكما للأندلس . وجعل مركزه غرناطة^(٢) ، ولا نستطيع القول بأنه تقبل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قرطبة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أوفق للمرابطين ، لأن معظم أهلها كانوا من بربر إفريقية ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقية مصدر الإمداد .

وعجل « تيمم » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل موقعة أقليمش^(٣) أن يدخل أرضها أن يقضى على الحامية النصرانية التي كانت تحتل حصن أقليمش (أو أقليمج Uclés) شرقي طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسر فسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه

(١) Francisco Codera : La Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España (Madrid 1899), p. 7.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣

(٣) هذه الواقعة هي موضوع الوثيقة الأولى التي نشرها هنا ، وهذه هي المراجع غير العربية التي تتحدث عنها :

Crónica de Burgos en Esp. Sagr. XXIII p. 310.

Anales Toledanos en Esp. Sagr. XIII. p. 327

CODERA : *Decadencia...*, 10-11

BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II. pp. 232-233

ولم يذكرها من المراجع العربية المنشورة بالتفصيل إلا روض القرطاس : ص ١٠٣ — ١٠٤ والوثيقة التي نشرها تطينا عنها تفاصيل وافية . وقد ذكر عبد الله الحبري عن أقليمش أنها قاعدة كور شنتبرية وذكر أن فيها جامع كبير . (الروض المطار : ص ٢٨) وهي الآن في مديرية قونقة (Guenca) وتابعة لمركز تارانكون Tarancón .

cf: LÉVI-PROVENCAL *La Peninsule Ibérique au moyen-âge d'après Kitab ar-Rand al-mi'ad* (Leiden 1938) p. 35

الناحية: فحاصرها المرابطون ، وكان ألفونسو السادس يعلق عليها أهمية كبرى ، فأخذ الأهبة للمسير لدفاع المرابطين عنها ، وكانوا قد قضوا على الكثير من جندها وأجأوا البقية الى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه ، فيكون مواجهها تميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجدهم » كما يقول ابن أبي زرع : وكانت الوقعة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصارى ثلاثة وعشرون ألفاً ، ونُقِرَّ الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصارى هلكوا فيها ، ولهذا يسمونها « موقعة الأكناد السبعة (Batalla de los Siete Condes) » وقد هلك فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك ، وأراد تميم ترك البلد للنصارى والانصراف عنه لولا أن قواد لمثونة من المرابطين أصروا على الاستمرار في القتال ، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزماً تاماً (١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨ م) ، وقد قتل في هذه المعركة « شانجة » بن ألفونس وولي عهده ، وقد هاضمت هذه الكارثة نفسه ، فتوفي بعدها بئيف وعام (٣ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ شوال ٥٠٢ هـ) ^(١) .

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر ، وأقبلوا في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م — يقودهم على بن يوسف نفسه ، ووجهتهم طليطلة ، وإقليمها ، فشنوا عليها غارات عنيفة ، واسترجعوا من كبار مدائها « مجريط » وراى الحجارة (Guadaluja) ، وحاصروا طليطلة شهراً دون أن يصلوا الى نتيجة ، وعادوا الى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب في نفوس أهل قشتالة وأمنوا خطرهم ، فانهز على بن يوسف فرصة الهدوء في هذه الجهة ، وأرسل قائده الأمير « سير بن أبي بكر » في حملة عنيفة الى غرب الأندلس استعادت مدائن شنترين (Santarén) وبلميوس (Badajóz) وبرتقال (Oporto) وبأيرة ^(١) وقد ذكر ابن أبي زرع خطأ أنه توفي بعد المعركة بعشرين يوماً. روض القرطاس ،

س ١٠٣

COBARRA, *op. cit.*, p. 10, 239-242

BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* 11. p. 232-233

(Evora) وأشبونة (Lisboa) (٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) ^(١)، وقد وإلى المراتبون الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا إلى نتيجة . وكان مركز الإسلام في شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد أن استعاد المراتبون بلنسية من النصارى في سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت هي وإقليمها تحت سلطان رودريجو دياز د بيقار المعروف بالسيد القميطور (El Cid Campador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م — ٤٩٥ هـ ١١٠٢ م) وقد استخلصها من أيدي رجال هذا المغامر القشتالي القائد المراتبى أبو عبد الله محمد بن مزديلى ، بعد كفاح طويل مرير مع زوج السيد «شمانة» (Chimena) وألفونس السادس، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا فيها النار ، وجعلوها كومة رماد ^(٢) ، ولكن عودتها قومت الجبهة الإسلامية في شرق الأندلس ، وفتحت الطريق أمام المراتبين لتأمين سرقسطة والتغر الأعلى ، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالقة .

وكانت أحوال « سرقسطة » تسير في ذلك الحين من سيئ إلى أسوأ ، وكان أهلها قد سكنوا خلال المدة الماضية لما كان من همة أميرهم «المستعين» واقتداره على مناصرة «السيد» و«ألفونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرها . وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع «السيد» وإيواءه إياه واستخداه له في حروبه ، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان «السيد» ينزله بأهل بلنسية من الويلات ^(٣) ، ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(٢) لا يتسع المقام هنا للكلام عن «السيد القميطور» وعلاقته بالمسلمين وفضائله في بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التي كانت تحيط بحياة هذا الفارس القشتالي الذي جعلته أشتار الملاحم الأسبانية أعظم رجال عصره ، ثم جاء منتدذ بيدان فجعله أعظم أبطال التاريخ الأسباني إطلاقاً في كتابه المعروف *La España del Cid* وقد قرر فيه آراء تستدعى من جانبنا استدراكاً شاملاً .

(٣) راجع ما يقوله «ابن عذارى» في القطعة التي نشرها إيثى بروفانسك من الجزء الرابع من «البيان المغرب» في مجلة الأندلس :

LÉVI PROVENÇAL: *La Toma de Valencia por el Cid*. Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, fasc. I p 123

لأنه كان بين المطرقة والسندان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس» عليه لضاعت سرقسطة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه في مرسية ، ولم يكن في استطاعتها الوصول الى بلاده . فلما توفى السيد في سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود في الاستيلاء على شرق الأندلس كله ، وحايته من أذى المغامرين من فرسان النصراري وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم في ذلك الحين الى شرق الأندلس ، فأقام على بن يوسف أخاه أبا الطاهر تيمنا عاملا على الأندلس ، ونذب هذا أكبر قواده «محمد بن الحاج» قائدا لجيوشه في الشرق وجعل مركزه مرسية ، وجعل معه نفرا من أكبر قواد «لمتونة» تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وأبا بكر إبراهيم بن نافوت أو «نافلوت» وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو في نواحي سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضي النصراري ، وكان أبو بكر إبراهيم ابن نافلوت حاكما مدنيا لمرسية وإقليمها (١) .

وهلك المستعين بن هود — على ما مر — في سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيج أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تتزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير «المرابطون» من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل الى جيرانه النصراري ميلا قويا ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرطوا عليه «ألا يستخدم الروم ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس الى المثلثين» (٢) .

وكانت الجهة النصرانية قد جدد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر في مصير الأندلس الاسلامي ، ذلك هو صعود «ألفونسو الأول» الملقب «بالمحارب» (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ / سنة ١١٠٥ م ، فقد كان فارسا جلدأ متجدد المهمة شديد الطمع فيما

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ١٠٤٠

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ص ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان الى نشاطه وذكاؤه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراکا Urraca » ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفي هذا انضمت ليون وقشتالة الى أرغون ودخلت في طاعته كذلك إمارتا « جليقية » و « البرتغال » وكانتا تؤيدان اليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطلونية في الشرق وبلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدرو » الحماس المسيحي والرغبة في الاستيلاء على ما بيد المسلمين من بلاد ، وكان « بدرو » قد حوّل الكفاح بين الاسلام والنصرانية في شبه الجزيرة الى حرب صليبية ، لأنه « لما أسفرت الحرب الصليبية عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثاني الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان النصرارى الاسبان قد منعوا من مرافقة الصليبيين الى بيت المقدس ، فقد رأى بدرو ورعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها ضد (أعداء الدين) »^(١). بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب في حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدائن الشمال الشرقى ، وكانت تترأى أمامه فريسة سهلة لا يكاد يعصمها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاة المستعين وقيام ابنه عبد الملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولولم يُشغل ألفونس عن « سرقسطة » بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراکا وأنصارها ، لتقدم سقوط سرقسطة في يده بضع سنوات .

ولم يكن لعبد الملك بن هود بد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف في المدارة والانكماش أمام الفونس المحارب ، فخشي المرابطون أن ينتهى الأمر بضياع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائد محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصرارى ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة ، ويحجى عليهم

(١) اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (تعريب الامتاز محمد عبد الله عنان) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فأنصرف عنهم ^(١) ، وزادت مخاوف عبد الملك من ناحية المرابطين ، وعول على الاستئجار بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شربوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو مخالفتهم ، وبلغ الخبر محمداً بن الحاج قائد المرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، وعجل عبد الملك بالاستعانة بالقونوس ، فأسرع محمد بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبد الملك بن هود إلى الشمال واستقر بمحصر روضة (Ruenda) تحت حماية القونوس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك انتهى الدور الأول من تاريخ بني هود في سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر في نواح أخرى من الأندلس في أواخر أيام الموحدين ، ويبدأ بذلك الدور الثاني من تاريخهم .

فلما تمكن الأمر للمرابطين في سرقسطة تجردوا لحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال يناجزهم ويعتدي على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج محمد بن الحاج في حملة قوية نحو برشلونة في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م . وصاحبه القائد محمد بن عائشة ، وصر الجبش في طريقه إلى برشلونة بمحصر ثرفيرا (Cervera) ^(١) فخربه ، ثم وصل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد المرابطون في تخريب أرباضها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد لحصانته ، وعادوا محملين بالمتاع الوافر ، ويبدو أن الفنائم كانت كثيرة جداً ، لأن محمداً بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الروماني ؟) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة ، فسار في مفاوز وعرة ومضايق مليئة بالمخاطر ، فأنهز جنود برجلونة الفرصة ، وكنوا له عند ضائق وعر قريب من حصن كونجست دل مارتوتريل (Congost del Martorell) وهاجموه « فقاتلهم قتال من أيقن بالموت ، واغتم الشهادة ، إذ لم يجد منفذاً

(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن أبي زرع في وصفه لهذه الحملة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللفظ تحريفاً من الناسخ لاسم الحصن .

انظر :

(ODERA : *Decadencia...* p. 21

وابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة ففر بالخيالة إلى بلاد المسلمين^(١١) (٥٠٨/١١١٤م) وكانت لهذه الكارثة رجة كبرى في بلاد الأندلس ، وعجل الأمير علي بن يوسف فأقام الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت المسوي^(١٢) حاكم مرسية إلى ذلك الحين ، حاكما على شرق الأندلس ، وقد أصيب محمد بن عائشة في هذه المعركة أصابة لم يلبث أن فقد بصره بسببها فيما بعد^(١٣) .

وتجرد أبو بكر إبراهيم بن تافلوت لحرب برشلونة للأخذ بثأر هذه الهزيمة ، فجمع جنداً كثيرين وسار بهم إلى بلنسية ثم إلى سرقسطة ، وجمع من نواحيها من استطاع من الجند ، وسار فزل برشلونة وضييق عليها وأزل بزارعها خرابا شاملا^(١٤) .

وكان الأمير علي بن يوسف قد عزل أخاه تيماء عن ولاية الأندلس واستبدل به الأمير سير بن أبي بكر ، فأقام في الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧/١١١٣م فولّى حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكما إلى أن توفي سنة ٥١٠/١١١٥م خلفه في هذا المنصب الكبير الأمير عبدالله مزديلي ، وكان من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيماً في حرب النصاري ، ولم يتصر جهوده على إقليم طليطلة وغرب الأندلس كما كان سابقه يفعلون ، بل اتجه بهيمته إلى الثغر الأعلى ، وكان الضمط البصري قد اشتد عليه من كل ناحية : كان الكونت رودريجو نوئيذ Rodrigo Nuñez (يسميه ابن أبي زرع « بنى الزند غرسيس ») صاحب « وادي الحجارة » قد سار إلى « مدينة سالم » فحصرها ، فسار إليه عبدالله مزديلي واضطره إلى الفرار تاركاً عسكره وأثقاله ،

(١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(١٢) يرد اسم هذا القائد عادة دون نسبة ، وقد عثرت على نسبته تلك عند ابن خلدون :

المعبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(١٣) اختص ابن الأثير إبراهيم بن تافلوت بمادة من مواد « المعجم و أخبار أبي علي

الصدقي » (ص ٥٥) ومنها يعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يعرف بابن تديشت .

« جسي ابن الأثير هذه الوقعة « بوقية البورت » .

(١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه الى إقليم سرقسطة ليدفع عنه هجوماً عنيفاً قام به ألفونس الأول
المحارب صاحب أرغون ، واشتبك أبو عبد الله مزدلي معه في قتال عنيف
استشهد فيه سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م^(١) ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء .
وفي هذه الأثناء كانت الحرب بين أبي بكر بن تافلويت قائد المرابطين في
سرقسطة وبين رامون برنخير صاحب برشلونة مستمرة على أشدها ، وانكسر
المرابطون كسرة شديدة ، في سهل برشلونة في أواخر سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م .
وبعد ذلك بسنتين توفي ابن تافلويت آخر كبار حماة شرق الأندلس
من المرابطين^(٢) ، واشتد الضغط على سرقسطة وبدأ بوضوح أن مصيرها
الى النصارى (٥١٠ هـ / ١١١٧ م) .

وفي أوائل سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م تخرج أمر المرابطين في شرق الأندلس
بل في الأندلس عامة بعد أن تخطف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ،
وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر
علي بن تاشفين إلى الجواز بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة في صفر من ذلك العام ، وأقام
محمد بن عبد الله مزدلي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة وزوده بحشود
من الجند والطوعة . وكان « ألفونس المحارب » قد أقبل يحاصر سرقسطة
وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مزدلي يدافعه عنها حتى ألجأه
إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفي محمد بن مزدلي ولم يتسع
المجال أمام المرابطين لتولية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد .
فانتهز ألفونس الفرصة وأقبل يحاصر البلد من جديد^(٣) (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) .
وزاد طمع ألفونس حينما وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين .
فحاصر « لاردة » وكاد يستولي عليها ، فأرسل أهلها يستجدون بعلي بن يوسف
فبعث أخاه تيماً وأقامه عاملاً على شرق الأندلس ، فسار تيم في جيش كبير

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA : *Almorávides...* p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط الاسكودريال) ورقة ٩٨

(٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA, *Almorávides*, p. 250)

وسار معه عمه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وثبتوا لألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده^(١١) ومضوا يتعقبونه في بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار في القتال ، لأن أمور المرابطين اضطربت في مراکش ، فاضطر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراکش ، وكان بهوم بأمر مرسية لعلي بن يوسف أخوه أو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سر قسطة لرفع أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها ، وعاد إلى مرسية^(١٢) وخلا الخو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « في أم كالم والجارد ، فنزلوا معه بها ، وشرعوا في فتالها ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات ، وقربوه منها ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فئت الأقوات وفي أكثر الناس جوعا . فراسلوا ابن ردمير (ألفونس الأول المحارب) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فان لم يأتهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له ، فعاهدهم على ذلك ، فتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية . وذلك في سنة اثنتي عشرة وحمسة ، وبعد دخولها وتملك النصاري إياها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها^(١٣) . هكذا سقطت سر قسطة قاعدة الاسلام الكبرى في شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطربت بسبب ظهور الموحدين واشتداد القتال بينهم وبين المرابطين في افريقية .

وعلى رغم المصاعب التي أحاطت بعلي بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصاري في كل ناحية ، وقد بذل على بن يوسف جهده وأقام أخاه تيميا حاكما عاما على الأندلس من جديد ، فمضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١١) ابن أبي زرع ، روض القرداس ، ص ١٠٦

(١٢) ابن الخطيب ، الأمانة (مخطوط الاسكوريال) ص ٩٨

(١٣) ابن أبي زرع ، روض القرداس ، ص ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلحون في طلب النجدة حتى استمع اليهم تبم وبعث اليهم قوة مرا بطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج معهم حتى العلماء من أمثال أبي علي الصدي وأبي بكر بن العربي لم يترددوا في اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «لقلعة أيوب» ، فساروا نحوه . والتقوا معه عند بلدة (كتندة) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة انزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بتمعة آلاف فيهم أبو علي الصدي ، ويؤكد المقرئ أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وجددهم . (ربيع الأول أو الثاني سنة ٥١٤ هـ / يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠) (١) .

ويكفي للدلالة على الصدى البعيد الذي كان لهذه الهزيمة في بلاد المسلمين أن نذكر أن علياً بن يوسف جاز إلى الأندلس بنفسه في العام التالي (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) لكي يأخذ بثأر هذه الهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سر قسطة ، لأن الطريق إليها كان قد أقفل كما ذكرنا ، فاكتمى بمغازاة نواحي طليطلة والبرتغال وأنخن فيها واستولى على قلعة قلمرية Coimbra (٢) على شاطئ المحيط الأطلسي . ثم عاد إلى إفريقية بعد ذلك تاركاً أمور الأندلس لاختيه تميم وسرى أن تهما سيحاول بعد ذلك الالتفات إلى سر قسطة لاستنقاذها : ولكن محاولاته ستكون هزيلة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهزم أمامهم عند مكان يعرف بالقلعة أو القلاعة لم نستطع تحديد موقعه بالضبط) انظر مقدمة الوثيقة الثانية) .

(١) راجع عن معركة كتندة : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٤ — ابن ادبار : المعجم في أخبار أبي علي الصدي ، ص ٧ — المقرئ ، نفع الطبيب ، ج ٣ ص ٧٥٩ («بيعة القاهرة») .

SAN JUAN DE LA PEÑA, *Cronicon*, p. 68.

ZULERA, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

Annales Compostelani Esp. SAR. XXIII, p. 321.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

أشباخ ، تاريخ اندلس ص ١٥٣

وكانت لهزيمة كستندة الفاسية نتائج بعيدة المدى في مصر « الثغر الأعلى »
 الأندلس كله ، إذ أن استيلاء « الفونس » على هذا الحصن المنيع المجاور
 « لدروقة » قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن « قلعة
 أيوب » المجاور له . وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرو الأعلى ،
 ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تنهد لانقاذ سرقسطة ، وسترينا
 الوئيفة الثانية كيف أن المرابطين لم يجرؤوا بعد ذلك على مجرد الاقتراب
 من سرقسطة ، لأن « كتنده » « وقلعة أيوب » كانتا في يد هذا المحارب
 الأرغوني الذي لا يكل ، وكان ينفطاً لا تغفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما
 استولى على معقل من معاقل المسلمين اتجهت به المهمة الى الذي يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جندية قام بها المرابطون لاستنقاذ سرقسطة ،
 ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون
 والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد
 العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين
 كانت تشتت يوماً بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة
 إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس
 المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للمحافظة على تلك الغنيمة العظيمة
 التي سفلت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركيز قواته كلها
 للفوز بها طوال نيف وعشر سنوات . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت
 نفوسهم بالمرابطين ، وعمما قريب تبدأ الثورة عليهم في كل بلد أندلسي ،
 ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسبئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدروها ،
 وسيقف المرابطون في الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمي الأندلس .
 فكيف كان يتاح لهم التفكير في استنقاذ هذا المعقل الاسلامي الذي ضاع الى الأبد ؟
 هكذا سقطت « سرقسطة البيضاء » درة « الثغر الأعلى » وطلعية
 حصون الاسلام في معركة الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها
 الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عدااء المرابطين وأضاعها المصادفة السيئة ،
 مصادفة ظهور الموحدين في ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقسطة وشرق الأندلس :
 كم من جيش لهم هلك مناجزاً عن حومة الاسلام ، وكم من قائد لهم سقط
 في سبيل سرقسطة ولاردة ومليسية وغيرها من حصون الاسلام ! ولكن
 شيئاً من ذلك لم يُعَد ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درءه حيلة .
 أحس ، ولم يفقد هؤلاء المرابطون المجاهدون رغم ذلك كله الأمل في استنقاذ
 ما يمكنهم إنقاذه من حواضر الاسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكذب تسنح لهم
 الفرصة حتى انددوها وأمانهم الحظ هذه المرة : ففي شعبان سنة ٥٢٢ هـ
 يوليو ١١٣٠ م توفي عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة الذي ذكرنا
 كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه ولجأ إلى حصن « روطبة » المعقل
 الوحيد الذي بقي للإسلام من إمارة سرقسطة . وهناك أقام في حماية
 « ألفونسو المحارب » صاحب أرغون ، وولده ابنه أبو جعفر أحمد
 سيف الدولة^(١) ، الذي أبقى رغم سوء حاله وانضوائه تحت لواء ملك نصراني —
 إلا أن يتخذ لنفسه إماماً خلافاً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ
 السيئ كل من اتخذه من خلفاء الاسلام ! ويبدو أنه ضاق بسلاطنته
 « ألفونسو المحارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه ألفونسو ريمونديز
 Alfonso Raymondéz ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية « المستنصر بالله »^(٢) ،
 وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملاتهم المتوالية على الثغر الأعلى على طرطوشة
 ولاردة وإراغة Praga ومكناسة Mequinez^(٣) ، ولم يستطعوا الاستيلاء
 على « روطبة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها
 ملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا
 الاسلامية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة إعطاع .
 وفيما بين سنتي ٥٢٥ ، ٥٢٦ هـ (١١٣٠ ، ١١٣١ م) استطاع « ألفونسو المحارب »
 أن يستولي على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل ، ثم توجه بقواته نحو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٣

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله

عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) Codex. Almoravidus, p. 12-13

«إفراغة» وكانت كثر العقاب تشرف على نهر «أنجا» فحاصرها حصاراً شديداً، وأسرع لنجدها أمير مرابطين من قبيلة «مسوفة» سيكون له أثر عظيم في تاريخ الأندلس خلال عصر الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بني غانية أصحاب الجزائر الشرقية، وكان يلي بالنسية ومرسية لعلي بن يوسف، وسار لنجدها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على «لاردة»، وانضمت إلى قواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستيلاء على «إفراغة» وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله، مما يدلنا على مقدار الحماس والتفاني الذي كان يعمر نفوس هؤلاء الأسباب في هذا الدور من صراعهم مع المسلمين. وبلغ من رغبته في استنفاذ قومه أن أمر برقات القديسين فأتى بها إلى الميدان إذكاء لروح الحماس الديني في قلوب الرجال، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصفوف، حتى التهب نفوس جنوده حمية، وأقبلت قوات المرابطين واشتبك معهم مرتين لم توفق في كليهما، فوقع اليأس في قلوب أهل البلد وعولوا على التسليم. ولكن ألفونس رفض وصمم على أن يفتح البلد بمجد السيف.

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين: واندفعوا يقاتلون قتال المستبشرين، وكره المرابطون على البلد مرة أخرى في عزومات قوية: واستدرجوا الجيش الأرغوني إلى كمين وضعوه في الطريق، ثم انقضوا عليه من كل ناحية، وامتلكوا زمام المعركة ومنزقوا الجيش الأرغوني شرمزق، وسقط من حماة النصاري وقوادهم وأساقفتهم في هذه المعركة نفر كبير في مقدمتهم «ألفونس المحارب» نفسه، سقط تحت سيوف المرابطين^(١) في ختام هذا الصراع الرهيب الذي احتدم بينهم وبينه عشرات السنين (٢٣ رمضان ٥٢٨هـ / ١٧ يولييه ١١٣٤م).

(١) راجع عن موقعة إفراغة: الضبي: بغية الملتبس، ج ١ ص ٩٥، ٤٠٦ — ابن الأثير، الكامل: ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب، الاطاحة (مخطوط الاسكوريال) ص ٢٨ — ابن عبد النعم الجيوى، الروض المطار، ص ٢٤ — ٢٥
CRONICA DE ALFONSO VII en España Sagrada, XXI pp. 339-344
CODERA, op. cit. pp. 267-272

هكذا فشل ملك أرغون في الاستيلاء على إفراغة ولاردة . وارتفعت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم ، وبدوا كأنهم مبادرون الى الاقتراب من سرقسطة التي كانت قد أصبحت عاصمة أرغون ، ولكن الظروف لم تسعفهم ، ذلك أن الخط عوض الجبهة النصرانية بملك آخر لا يقل نشاطاً . لا رغبة في مغالبة المسلمين عن ألفونسو المحارب ، ذلك هو ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون ابن الملكة أوركا — التي ألمعنا بطرف من أخبارها — من زوجها ريمونديز البرغوني . كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . بعد أن توفيت أمه الطموح التي قضت في ميادين القتال معظم عمرها ، ومن غرائب المصادفات أن عام ولايته كان عام وفاة أبي الطاهر تميم الذي ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة ، خلا بعض فترات قصيرة . وبوفاته أخذ أمر المرابطين في الأندلس بهوى في سرعة .

وليس هذا مقام ذكر ما تلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية في الأندلس ، لأنهم سيظلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغازون بلادهم دون أن يوفقوا إلا إلى قليل ، لأن شئون دولتهم في إفريقية كانت قد اضطربت اضطراباً زائداً ، ولأن أهل الأندلس المسلمين انقلبوا عليهم في كل ناحية ، وقاموا عليهم يقتلونهم حيث وجدوهم ، وانتهى أمرهم في الأندلس وفي المغرب كذلك نهاية محزنة : أبادهم النصارى والأندلسيون في الأندلس ، وقضى على قواتهم الموحدون في المغرب ، ولم يبق منهم إلا فرع بنى غاية المسوفيين الذين اعتصموا بالجزائر الشرقية وظلوا يناوئون الموحدين حتى أيام الناصر الموحدي .

وبهنا من ذلك كله أن دولة الاسلام فقدت سرقسطة الى الأبد ، وسرى في الوثيقة الثالثة أن علياً بن يوسف كان مهموماً بأمرها يفكر في استعادتها ، ولكن محاولاته كلها لم تسفر عن شيء .

وكان ألفونسو المحارب قد نقل عاصمة ملته إلى سرقسطة بعد استيلائه عليها مباشرة وحول مسجدتها الجامع الى كنيسة . وأزل فيها أعداداً عظيمة

من جنده وأهل أرغونة ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ، وتمكن خلال السنوات الثلاث التي تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طركونة *Tarragona* عاصمة أسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة ، واستولى كذلك على « قلعة أيوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الثغر الأعلى » مثل وشق : وروحة ومكناسة فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على افرغة^(١) . وبهذا انتهى الثغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الاسلام في شرق الأندلس للمنسية ومرسية ، وستكونان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والاسلام في عصر الموحدين .

BALLESTERAS : *Hist. de España*, II pp. 327 suiv.

الوثائق

الوثيقة الأولى :

موقعة « أقليمش » من المواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهي أحد الانتصارات الكبرى التي أحرزها هؤلاء اللمتونيون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم في إفريقية للذيد عن مصير الاسلام في الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباخ » في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » في تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في أقليمش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م (١٧ شوال سنة ٥٠١ هـ) ذروة سلطتهم في إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في اسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس : ويفدو سقوطهم في القريب أمراً محتوماً » (ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردناها في الفصل التاريخي السابق ، ولا نحتاج لجهد كبير للمستبين أن هذه الوثيقة تضيف الى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئاً كثيراً جديداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي من بلدة « برجة » بالأندلس ، وكان من شعراء المعتصم بن صامح صاحب المرية ، وقد أورد المقرئ له له في « النفع » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل في خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد المنعم الحميري فصلاً لأقليمش في « الروض المعطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن في ثغر الأندلس ، وهي قاعدة كور تشنشيرية وهي محدثة ، بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ثم اختار أقليمش داراً وقراراً ، فبناها ومدنها ، وهي على نهر منبعث من عين مالیه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ماء حمائيا ، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليمش : فإن طول كل جائزة

من جوائز مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهي مربعة متحوطة مستوية
الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أقليمش Ucles اليوم في مديرية قونقة Cuencu في ناحية Tarazona
في إسبانيا كما ذكرنا .

cf. LÉVÉ PROVENÇAL : *La Péninsule Ibérique*... p. 35 et n. 3
وفد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة للمعركة التي نحن بصدد
ولكن الوصف الذي تقدمه هذه الوثيقة دقيق يعطينا صورة واضحة
جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتتبع تطورها في تفصيل
عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

رسالة

كتبها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض
رؤساء الغرب ^(١) إلى أمير المسلمين ^(٢)
رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله ^(٣) بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » ^(٤) ، عماد الأنام وعتاد
الاسلام ، السعيد الأيام . الحميد المقام ، كبير القدر وظهيرى على الدهر ،
الذى أجله بحقه وأمر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة
مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ،
وأعطى الفالسج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا في الأصل ، ويراد به « الغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس
يضاً في ذلك الحين .

(٢) على بن يوسف بن تاشفين .

(٣) لم يتم فتح « أقليمش » في هذه الحملة . إذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ،
بما نرى ، ولهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بين الشولات هو اللقب الرسمى الكامل لأسماء المرابطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم الأندلس وفائد
هذه الحملة .

والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام ،
وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأذبار . والله تعالى يشفع
سعوده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعني أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آلة التشريف
والعز المنيف . وألحتني من النعماء وأسحبنى أذيالها ، وصرف إلى
من عدده وبلده ما أولاني نعمه ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد (ف ه)
عالقاً بسببه ، أخذاً بذهبه . وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدي ،
وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة يميناء رأسها وعلى تقواه
أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر
من شهر رمضان المعظم ^(١) بجيش تصم صواهلها وتطم كواهلها ، راياته خافقة
وعزماته صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا ،
وتبعت هادينا . وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كيون ، وتحركوا
عن سكون ، وأنحنا بناحية بيّاسة ، وقد توافد الجمع وملى البصر والسمع .
وأخذت في الرأي اخمّره والعزم أضمره والذيل أشمره ، وجددت
الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت
في كل أموري على حكمه خاضعاً متواضعاً .

ولحقنا بطريق بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان
عنوان الأبهة سعادتنا ببيان الرتبة ، وسرنا بجيش فيضاً على أرض تفيض
غيباً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد فطقت ألسنة
الاعتق في أمدادهم ، وأشرفت كواكب الاسنة في عتام القتام ومدت
السيوف في كل نهج ، واستقلت الرايات عن كل قبيل قبيل وأفضت

بنا الخيرة الى المدينة الحصينة « أقيش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والصور المشيد ، وبدر السابق وشفع اللاحق .

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها ، واكتنفناها اكتناف الشيخة لسببتها ، وهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وخاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل صرب من الحرب ، نخسف عليها ونسف هاويها . ولزها بالرماح ، ونهزها هز الفصن في أيدي الرياح ، حتى فض اختم وعرض منه الابهام ، ونجل الله بالنصر وفتحها بالقسر . ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقهم السيوف محي الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فخرروا إلى الأذنان ، وسبقوا إلى الموت والأذنان ، فأكدنا نزل حتى كيدنا ذلك المنزل ، وما أنحننا حتى رضخنا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر بهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصّر الوقت المبعث وشغل الأخيد (ف ٥٥) عن الفت ، وألهمي الكثير عمن قل ، ونام الجم الغنير عن القل ، وعادت ^(١) بقاياهم بقصبة المدينة فوجلجوها كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الجد ونوحر ^(٢) [لا أقل غرب : ولا مكث حرب ، نجحت الجرائم . ونحتز الغلاصم ، ونحرب الديار وبنياتها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتتأحف بهدايا السبايا ، وتتكشف عن بقايا الخبايا ، ونصرح ^(٣) : بانيانا صدعته الختوف وغلبته السيوف ، فلا طلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الايمان ، وبذل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرح

(١) في الأصل « عادت » .

(٢) كذا في الأصل من غير نقط يعقبه بياض بقدر كلمة .

(٣) في الأصل : ونتتأحفوا وتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها الناصح نتيجة للاملاء ، وهذه الظاهرة تدل على أن أهل الاندلس كانوا يصفون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة نطقية (مونيكية) جديرة بالملاحظة .

النواقيس عن بيعها ، ولأذ بنا من هنالك من المسلمين عائدین بنا مستسلمین لنا ،
فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة
إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فأنجابت كُربتهم ، وعادت بعد البوار
ومجاورة الكمار بشر دارملتهم ، وأنار لهم الاسلام على منار الایمان المجرد ،
واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضميره ،
وخطب الحق المبين على منبره .

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار .
فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيمضت تلك الدماء الهوامس (١٥٦) وغدا الخميس
في الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، ينجر أذيال الظفر في العدد الأوفر ،
يشفع الأولى بالتوالى ، ويشترى العولى بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ،
وأصبحوا لانرى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس .

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن ، والحصن
في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبغ في الخاتم ، « والحصور مأسور
وصاحب الحائط مقهور » (١١) ، ولم تزل نوسعهم قتالا ونوسعهم ضرراً ونكالا
مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدته ، وبث الليل جنده ، فعدنا إلى محلنا وقد أتمل
الكال أيثنه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس
جهاثها وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر ، ولكن
كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية (١٢) زاده الله ذلا قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،
وأبعد في الاستصراخ مضاره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى دمر (١٣) ، وانطوى
على غمر ، فأقدم وصمم ، وبئس ما تميم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

(١١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الأندلسية .

(١٢) يريد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(١٣) كلمة لم أستطع قراءتها والنذر زار الأسد .

اذفونش^(١) وصاحب شوكتهم ألبرهانس^(٢) والقمط بقبذرة^(٣) وقواد
بلاد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » . وكل قاص
ودان ، (٥٦ ف) وعاجل وأخزى الله جميعهم ، وظل نجيعتهم ولا أقام صريعهم .
وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتُهُ لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون اليعرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ،
وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهبوا ، ووصلوا فحصلوا . وأرسل الله تعالى
من جنده حتى كانوا قد سيوه مصيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبئة
أعدها من عنده وبعثها لجنده ، ونزع^(٤) الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم
دالا عليهم . وكاشفاً بهم عن النبأ العظيم ، ومسطعاً منهم على المقعد المقيم ،
فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد
وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح

(١) الإشارة هنا إلى « سانشو » وحيد ألفونس السادس الذى قتل في هذه المعركة .
(٢) البرهانس هو الصيغة العربية للفارس القشتالى المعروف Álvaro Hañes
ابن عم السيد القميطور وعدوه اللدود فيما بعد ، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة
ليون في كل حروبه ، وقد اشترك في جميع المواقع التى وقعت بين ألفونس والرايطين ،
وقد كان من كبار فرسان قشتالة في معركة « أقليش » وانهمز مع من انهزم ، وخسر
اقطاعيته في قرية توريتا Zorita حينما استولى الرايطون على قوطة Guenon بعد
انتصارهم في أقليش ، وقد أقامه ألفونس بعد ذلك حاكماً لطليطلة ، فقام بالدفاع عنها حينما
حاصرها « الرايطون » في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد توفى سنة ١١١٤ م على يد أهل
سقوطية Segovia في الحروب التى استعرت بين ألفونسو المقاتل صاحب أرغون والملكة
« أوروكا » صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDIZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الإشارة هنا إلى الكونت « جاثيا د كبرآ » Garcia de Caba مؤدب
الأمير « سانشو » الذى قتل في المعركة .

cf: BALLESTEROS: *Hist. de España* II. p. 323.

(٤) لفظ « نزع » هنا مستعمل استمهلاً خاصاً ، لأن « النزع » في الاصطلاح
الأندلسى هو الجندى الذى يندس في جيش الأعداء أو يدخل معهم -منهم متكرراً
في زيم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط همهم ، ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه
أو بعد سقوط الحصن ، وكان في الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء . يعرف
« ديوان النزاع » .

فد بدأ . والدياجير ممدودة السرايق ، مجموعة الفيالق ، ولاجار إلا الفاسق ^(١) ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استدفت القائدين المجريين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة « أبا عبد الله محمد بن عائشة » وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة ^(٢) وليثى أعزها الله . فجلا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين . وخضعنا إلى حكمه مستسلمين . فعند ذلك حل يده المحتبى ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالريات . وحسنت الهوى في النهايات (١٥٧) والأسنة تجول ^(٣) في آمادها ، والنصول تصول في أغمارها . وترنا كما تار الشهم بفرصته ، وطار السهم لفرصته ^(٤) ، وأمرت رجلا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها ، ولأذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر في أكنافها وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه . ونهضنا بجماعتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامة ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نفتق سبيله ، ونبتغي دليله ، فما رفع الفجر من حجابها ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل تمحسسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريعان ، ولاخفاق الأعلام ضراب أو طعان .

(١) أى العدو .

(٢) لم نعلم إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة .

(٣) فى الأصل : وإلا يحول .

(٤) فى الأصل من غير نقط ، وقد جاء فى لسان العرب : « وفرصة النهار طلعت التى منها يستقى ، وفى حديث موسى عليه السلام : « جئى أرفأبه عند فرصة النهار أى مشرعه ، وجمع الفرصة فرس ، وفى حديث ابن الزبير : واجعلوا السيوف المنايا فرسا أى اجعلوها مشارع للمنايا وأمرنوا للشهادة » (ج ٩ ص ٧١) ولهذا قرأناها : فرصة .

وعند ذلك نجم « المعجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهطعون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى . كأنما شجروا بالديد ، وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون [الموت] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالفا . أن لا يتخالفا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبى زكى »^(١) مع جماعة ، فصددهم العدو بصدر نمر وقلوب أشرة ، فأنخوا بكل كل أورموا بجندل ، وشدوا فماردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهر القائد « أبو عبد الله » غير مؤلٍ وتراجع غير مخل إلى أن اشد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود .

فتراى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكنا ولائجين ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فمد يمناه ، وأقى الصبر فأشرق بحياه ، ونزت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت الفياق مائجة ، وهدرت الشة اشق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغمد ، وتساهلت الخيول وتطاوت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقعة الفبر ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب^(٢) . فطعن فارساً منهم فأدراه من مركبه ، ورماء بين يدي مو كبه ، فانتجج ، ما ارتج ، وانفتح المههم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأنظم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان^(٣) ودجاليل القتام ، وضاق مجال الخيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح (١٥٨) بالآشباح ، ودارت رحي الحرب تغر بنكالها ، وثارث نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلتغر الصدور ابتداد ، ولجزم القلوب

(١) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المرابطي .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » في القتال في الأندلس في ذلك العصر ، والغالب أن نفراً من العرب الملالين ، الذين كانوا في المغرب إذ ذاك ، عبر مع المرابطين إلى الأندلس للاشتراك في الحروب مع الصارى ، وسيترك هؤلاء العرب في تلك الحروب شكل ظاهراً أيام الموحدين .

(٣) جاء في اللسان (ج ٨ من ٢٨٧) خرصان : جمع خرص سنان الرمح ، وهو الرمح نفسه .

انتقاد، ؟ فلا وضّح النهار ، ولا مسح الغبار ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم الزاب ، واتصل الهلاك بالشرك ، وحادت الضالة إلى الملامك ، وقلم ظفر الكفر ، وطأت أيمان الإيمان ، وفر الصليب سلباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً^(١١) ، وغمرهم الختف فهمدوا ، وأطفأهم الحنين فخدموا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت المهبوات . وانجملت تلك المننات ، عن رسوم جسوم قد قصفتها البوار ، ووطئتها الخوافر ، خاضعة للحدود عائرة الجدود ، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدي بنيل وافي الكيل ، خيلا وبقالا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً أكلمهم حملها ، وأنعمهم جعلها ، فساءت ملبساً وصارت محسباً ، فطرحوها كأنهم منجوها ، وألقوها كأنهم أعطوها . احتزناها نهياً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولا نكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحترقت الدانية وزهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردو نش^(١٢) والقومط (٥٨هـ) وقواد بلاد طليطلة ، وأكار منهم لم يكمل الآن البحث عنهم^(١٣) ، فكانت كالمضرب الجسم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحّدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، وهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومسديها ، ومعيد المآل ومهديها ، وصدرت غانماً وأبت سالماً ، وبقي الفائذان محاصرين لحصن أقلش آخذين بمخفقهم ، مستولين على رمقهم .

(١١) كذا في الأصل ، ولعلها « صلياً » .

(٢٢) هو الكونت Garcia Ardoñez قائد قشتالي آخر من كبار من قتلوا في هذه المعركة ، وكان من فرسان « سانشو الثاني » ملك ليون ثم أصبح من أتباع الفرنس السادس صاحب ليون وقشتالة ، وحارب مع السيد حيناً ومنده حيناً ، واشترك في معارك كثيرة ضد المراتين ، فسكان من المدافعين عن حصن أليط Aledo ، وانهمز أمامهم في هزيمة « الكراز » Aleoraz ، واشترك في الهجوم على سرقةطة بعد ذلك ، ثم لقي مصرته في هزيمة « أقيش » هذه .

: MENNDEZ PINEAL: *La España del Cid*, index

(٢٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في عهد الموقعة مباشرة .

نخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل حيوره ، معلما بالأمر ،
مهنيا بالنصر ، المرحم بالله عز وجل على ما وهب ، ونشكره على ما سنى وسبب
والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالنظر والتأييد ، فهو ولي
الامتنان والمولى بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

الوثيقة الثانية :

واضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة في يد
ألفونس المقاتل بسنوات ، وعند مقارنتها بالوثيقتين التاليتين يتضح أنهما
نتيجة لها ، ولما كان تاريخهما هو سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م . فلما نستطيع
أن نقرر أنها كتبت في ذلك العام نفسه . ولا شك في أن أهل سرقسطة كتبوا
استغاثات كثيرة مثل هذه ، ولكن شيئاً منها لم يصل إلينا ، ومن هنا كانت
قيمتها التاريخية ، إذ أنها صوت الجماعة الإسلامية في سرقسطة بعد أن صارت
في أيدي النصارى بسنوات . وعلى الرغم من إصراف كاتب الرسالة في المحسنات
البديعية وتضييعه علينا بذلك أعم ما كنا ننتظره منه ، وهو وصف حال البلد
في ذلك الحين وصفاً واقعياً مادياً ، كما فعل محمد بن علقمة عند ما وصف لنا حال
أهل بلنسية في يد السيد الفمبيطور في كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح »
بالرغم من ذلك لم تحل الرسالة من إشارات على أعظم جانب من الأهمية ،
وهي علاوة على ذلك تصور لنا حالة اليأس الشامل الذي وقع فيه أهل هذا البلد
بعد أن انقطعت الصلة تماماً بينهم وبين إخوانهم المسلمين في كل ناحية ،
ولهذا كله فهي جديرة بالدراسة ، وقيمتها التاريخية عظيمة ، أما قيمتها كنص
أدبي فلا تحتاج إلى بيان .

وقد حاولت أن أعرف على شخصية ثابت بن عبد الله كاتب هذه الرسالة ،
فلم أجد له ذكراً في مراجعتنا الأندلسية ، وهذا هو المنتظر ، لأنه كان من
هذه الجماعة الإسلامية السرقسطية التي قدر لها أن تنفصل عن العالم الإسلامي
انفصالاً تاماً ، وتختفي في العالم النهراني شيئاً قشيباً .

رسالة *

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى
الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين^(١)
حين حاصرها ابن رذمير^(٢) واستغلها^(٣) أعادها الله

من ملأ ربي طاعة سلطانه ومستعجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله^(٤)
وجماعة سرقسطة من (الجمهور)^(٥) فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ()^(٦) لحرم الاسلام
يمنعه (١٥٩) ()^(٧) من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

(كته) ابنا أيدك الله ببقواه ، ووفقك لاشترائك دار حسنة بمجاهدة عداه ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان^(٨) ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
وأدهمت ضررها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جمل العزا (ع وعظم)
الخطب ، وأظلم الملاك والعطب ، فيا عوناه ! ثم يا عوناه ! الى الله دعوة () (تن)

* صفحة ٨ د ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) عامل الأندلس أبي بن يوسف بن قافين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض النسخ : « ابن رذمير » و « ابن رذمير » وهي صيغة أقرب
إلى الصحة ، لأن الصيغة الأصلية لهذا الاسم Rudimir وهو من أسماء الجرمان ،
وقد حرقه الأسبان إلى Ramiro ، فالصيغة العربية في هذا أقرب إلى الأصل الجرمانى
من الصيغة الأسبانية . والمراد بابن « رذمير » هنا القونسو الأول ملك أريون وايون
وقتله الملقب « بالمقاتل » El Batallador .

(٣) أى « واستولى عليها » مما يدل على أن هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد
في يد الصاري سنة ٥١٢ هـ .

(٤) ليست لدينا أى معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضي البلد ، مما يدل
أن على قاضي البلد كان لا يزال متبرأ رئيس جماعتها كما كان الحال في المدن الأندلسية .

(٥) في الأصل : « الجبل » .

(٦) هنا كلمة ناقصة في معنى « حماية » .

(٧) يقرأ في الأصل ، الكلمة الناقصة في معنى : « ودعنا » .

(٨) لم يحدد لنا الكاتب السنة التي كتب فيها ، والغالب أنه صدر بن سني

٥٢٠ — ٥٢٣ هـ ، لأن الرد عليه تاريخه سنة ٥٢٣ هـ .

دعاه^(١) وأثله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجليل الكرم والعوائد ، يا لله ! يا لاسلام ! لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ! وبلغ المأمول من يبيضته تداه ، ويا حسرتاه على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالايمن وازدهت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان . ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ! وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تظؤه الكفرة الفساق بذيهم أفداهما ، ويؤملون أن يذنسوه بقبائح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها^(٢) . ثم يا حسرتاه ! على نسوة مكثونات عذاري ، يُعدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حياري بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذى دهمهم شديد والضر (٥٩ ب) الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بذيات — كن من الستر نجبار الوجوه^(٣) — أن يروا فيهن السوء والمكره ، وقد كن لا يدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطنال قد كانوا نشئوا في حجبور الايمان ، يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان . فما ظنك أيها الأمير^(٤) بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هى هى وقايد هذه العظام الفادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها

(١) كذا في الأصل ، والغالب أن صحة القول ناقص : « مؤمن » .

(٢) هذا يدل على أن مسجد سرقطة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب ، أى قبل سنة ٥٢٣ هـ . مما يدل على أن القونوسو المقتل لم يكذب يدخل البلد حتى خاف الشرط الذى كان قد عاهد المسلمين عليها .

(٣) كذا في الأصل ، وأصل صحتها : « نجيات » أو « مخدرات » .

(٤) هنا يبدأ الجزء الثانى من الخطاب : جزء هجعة المرائين ولومهم وتحميلهم مسؤولية كل ما يصيب الاسلام في أندلس من المصائب . وقد كانت الأندلسيين على المرائين جراً بلغت حد الاهانة في كثير من الأحيان . وواضح أن الأندلسيين لم يكونوا يحترمون المرائين ، بل كانوا يكرهونهم ، ولم يكونوا يتوجهون اليهم في طلب الدعوى إلا تحت ضغط الحاجة .

في آخر ذمائها ، وتركها أغراضاً لأعدائها ، حين أحجم عن لقاءها ^(١) ،
 ظلى الله بك المشتكى ثم إلى رسوله المصطفى ثم إلى ولي عهده أمير المسلمين المرتضى ،
 حين ابتعنك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادياً لك إلى مقارعة العدو
 المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتمدين بحبل طاعته والمتجملين
 السبعة الأشهر الشدائد الهائلة في جنب مولاته ومشايخته ، من أمة قد نهكهم
 ألم الجوع والبلع المدي بهم من الضراوح ، قد برح بهم الحصار ، وقعت عن نصرتهم
 لأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرّون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ،
 ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون !
 وما كان إلا أن وصلت وصل الله بك بتقواء على مقربة من هذه الحضرة ،
 ونحن (١٦٠) نأمل منك بحول الله أسباب النصر بتلك العساكر التي أقر الله
 بهاؤها وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انتنيت وما انتهت ! وارعويت
 وما أدنيت ! خائياً عن اللقاء ناكصاً على عقبيك عن الاعداء ، فما أوليتنا غنائاً
 بل أوليتنا بلائاً وعلى الداء داء بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء
 بل أذلت الاسلام والمسلمين واجترحت فصيحة الدنيا والدين !

فيا لله ويا الاسلام ! لعداها تهم حرمه وحماه أشد الاهتمام ! إذ أحجمت
 أنصاره عن إعزازه أقيح الاحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة
 قليلة وأمة رذيلة ، وطائفة قليلة يستنصر بالصليبان والأصنام ، وأنتم تستنصرون
 بشعائر الاسلام ، وكلمة الله هي العليا ويده الطولى ، وكلمة الذين كفروا
 السفلى ، وإن من وهن الايمان وأشد الضعف الفرار عن الضعف ، فكيف
 عن أقل من النصف ^(٢) ؟ فما ^(٣) قبج من رضى بالصغار وسيم ^(٤) خطة

(١) هنا يدعى أهل سرقة على المراتبين تهمة لا أساس لها : تهمة الاحجام
 عن لقاء الصغرى ، وقد أثبتنا في المقال أن المراتبين بذلوا في سبيل الاسلام الأندلسي
 ما لم يبذله غيرهم ، وقد كانت الحرب بينهم وبين الموحدين إذ ذاك على أشدها ، وقودهم
 عن عون سرقة إنما كان سببه سوء ظنهم ، لا الاحجام عن لقاء الصغرى .
 وسرى من بقية الخطاب ، أنهم حارثوا إقاذ البلد رغم ذلك .

(٢) ربما أعاننا هذه الانتارة على تحديد تاريخ هذا الخطاب .

(٣) كذا في الأصل ، والغالب أن صحتها : « فيا » .

(٤) في الأصل « وسيم » وهي لظة وقع فيها الناصح نتيجة الإملاء ، وهي تؤيد
 ما أشرنا إليه من منط الأندلسيين على أواخر الكلمات .

الخسف ، فما هذا الجبن والفرع ؟ وما هذا الهلع والجزع ؟ بل ما هذا العار والضمير ؟ أتخسبون ^(١١) يامعشر الرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تلبعون بعدها ريقاً ، وتجردون في سائر بلاد الأندلس — عصمها الله — مسلحاً من النجاة أو طريقاً ؟ كلا ! والله ليسو منكم الكفار عنها جلاء وفراراً (٦٠ ب) ! وإيخرجكم منها داراً فداراً ! فسرقسطة حرسها الله هي السد الذي إن فُتق فتقت بعده أسدان ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد !

فألآن ^(١٢) أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالتنية ولا الدنيه ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين الأئمة والحمية ؟ وأين الهمم المرابطية ^(١٣) ، فلتندح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتنطاء جدها واجتهادها ، وملافة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولن يجامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ؟ ألا ترغب في رضوانه واشتراء جناته بمعارعة حزب شيطنة ، والدفاع عن أهل إيمانه ؟ فاستعن بالله على عدوه وحربه ، وأعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فانهم أغراض للمنايا والخوف ، ونهز للرماح والسيوف ، ولا ترضى بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولانكن كن قيل فيه :
يجمع الجيش ذا الألوف ويعزو ولا يرزا من العدو فتيلاً

ولن يسمعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء ، عن مناجزة الكفار والأعداء ، وكتابتنا هذا أيها الأمير اعتذاراً نقوم لنا به الحجة

(١١) هنا يلجأ أهل سرقسطة إلى تهديد الرابطين وتخويفهم ، وهي خطوة بمد القوم والتأنيب .

(١٢) هنا يهود السرقسطيون إل الرجاء والاستعانة . وواضح أن كاتب الخطاب كان رجلاً ماهراً لبقاً ، يعرف كيف يجمع في كتابه كل ما عساه أن يستهين المهم ويشير النفوس .

(١٣) لاحظ هذه العبارة وما بعدها .

في جميع البلاد، وعند سائر العباد، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والحاد. ونحن مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا، وإعذاركم إلى الدفاع عن حضرتنا، وأنت لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا، إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا، فدفاعك إنما هو في ذات الله وعن كلمة (الدين وربه) (١)، وشاماتك عن الإسلام وحزبه، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا، ومورث لك عند الله المنزلة العليا. فكم تحيي من أمم، وتبلي من كروب وغم !

وإن تسكن منك الأخرى، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك، فأقبل بمسرك على مقربة من سرقسطة — عصمها الله — ليخرج الجميع عنها، ويرأ إلى العدو وقه الله منها (٢). ولا تتأخر — كيفما كان — طرفة عين، فالأمر أضيئ، وإلجال أزهر، فعد بنا (٣) عن المظل والتسويق، قبل وقوع المكروه والخوف، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا، والمسؤولون عن صيبتنا وأطفالنا، لاحتجامكم عن أعدائنا (٤)، وتبطلكم عن إجابة ندائنا، وهذه حال بعيدك أيها الأمير الأجل عنها، فانها تمسكك من العار ما لم تحمله أحداً، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبداً، فأنه الله اتقوه وأيدوا دينه (٦١ ب) وانصروه، فقد تعين عليكم جهاد الكفار، والمذب عن الحریم والديار. قال الله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ... » الآية، وقد برئتم بإسلامنا للاعداء من نضر الإسلام، وعند الله لنا لطف خفي، ومن رحمته يتوكل (المنع) الحيفي، ويقتينا الله عنكم، وهو الحميد الغني !

(١) أضفت هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٢) هذه إشارة مهمة، فقد كان الخروج من المدينة يباح لمن أراد من المسلمين، من هؤلاء كانوا يخشون أن يتخطبهم العدو ويحبذهم إلى الطريق، وقد حدث ذلك كثيراً ولم لهذا يرجون أن يقترب من البلد حيث سراجي ليخرجوا من البلد ويسيروا إلى بلاد الإسلام، في جهاد .

(٣) في الأصل : فعدنا .

(٤) في الأصل : إعدائنا .

ومن متحملي كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا ، تقف من كنه حالنا على ما لم يضمنه الخطاب ولا استوعبه الاطّاب بمنه^(١) وله أتم الطول في الأصفاء إليهم ، واقتضاه مآلدهم إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢).

الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقسطة السابق ، وبعد أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبي بكر ابن سير يصف له لقاءه مع النصاري عند « القلعة » ويستنذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذي بينته في مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسي المعروف مروان بن أبي الحصال أعظم النثرين الأندلسيين في ذلك الحين ، وواحد ممن انتهت إليهم رعاية النثر الفني في تاريخ الأدب الأندلسي كله ، وقد وصفه المقرئ في « نفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب سراج الأدب » ، صنّفه على منزع كتاب « النوادر » لأبي علي (القالي) وزهر الآداب للحصري (القيرواني) (انظر ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤) ووصفه مرقين « بالوزير » ممّاه يدل على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس في عهده . « أمراء الطوائف » والمرابطين ، وذكره « ابن حزم » في « رسالته » مفاخرًا المشاركة بترسيطة (المقرئ ج ٢ ص ١٣٠) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم نشر إليها المراجع ، وهي أن ابن أبي الحصال كان في ديوان الانشاء المراتبي ، وكان يقيم في مراكش في بلاط « علي بن يوسف » ولم يشتر واحد ممن ترجعوا للرجل إلى ذلك .

(١) هنا كلمة لم أستطع قراءتها ، وربما هكذا : منه . والثالث أن النسخ أسقطت هنا عبارة في معنى : ورجلنا أن يتفضل الأمير علينا منه .

(٢) هنا يفت الخطاب ، وكان يودنا لو عرفنا من جهة « متجملو » الخطاب وصف حوال أهل سرقسطة في ذلك الحين بقى من التفصيل .

وصدور الكتاب عن « أمير المسلمين » نفسه يدل على أنه كان مشرفاً إشرافاً مباشراً على أمور الأندلس في ذلك الحين ، وأن الكتب التي كانت تصل إلى أخيه أبي الطاهر تميم مامل الأندلس كانت تحوّل إلى رئيس الدولة المرابطة لينظر فيها بنفسه .

ونص الكتاب يدل على اهتمام « علي بن يوسف » بشئون الأندلس رغم الظروف العصيبة التي كانت تحيط به وبدولته في ذلك الحين . وتلك حقيقة هامة تؤيد ما قلناه في هذا الأمير المرابط العظيم ، وتدحض ما ذهب إليه دوزي وسيمونيت وكوديرا وميتندز بيدال في حقّه ، وتؤيد كذلك ما قررناه من أن المرابطين ، كالأتراك العثمانيين ، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى هي الدفاع عن حرمة الإسلام .

أما دزيمة المرابطين وقائدهم في هذه الجبهة الشرقية محمد بن أبي بكر بن سير عند « القلمة » أو « التلاعة » — وهي لغة أندلسية في نطق هذا اللفظ — فحقيقة جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتي تليها ، ولا بد أنها كانت إحدى المواقع الكثيرة التي وقعت بين « المرابطين » والنصارى في طول الأندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة ، إذ أن المرابطين لم يكفوا عن محاولة استعادة سرقسطة ، وكانوا لا يتوقفون عاماً واحداً عن إرسال البعوث إلى ناحيتها ، وابتس لدينا مع الأسف الشديد أى تفاصيل دقيقة عن هذه الاشتباكات ، لأن شبه الجزيرة ككل تحول إلى ميدان حرب رهيب يقتتل المرابطين مع النصارى في كل ناحية من نواحيه ، وكانت أعداد المرابطين كبيرة نوعاً ما ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب اضطراب أمور دولتهم في إفريقية وإغراق الأندلسيين المسلمين عليهم ، فكانوا يرتدون عن اللقاء في كثير من الأحيان . وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لانقاذ الأندلس ، ومحدد لنا تاريخها وتصفها لنا وصفاً لا بأس به . ولم يستعد المرابطون ثباتهم في الأندلس إلا في سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر علي بن يوسف بنفسه عبوره الرابع الأخير لكي يحلّ في أمر ممتلكاته الأندلسية بعد أن أشرفت على الضمياح .

رسالة*

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل
أبي محمد ابن أبي بكر هزيمة « القلعة » رحمهما الله ^(١)

كتابنا وفقى الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد
سعيك ، من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة
ثلاث وعشرين وخمسمائة . وقبله وافى ^(٢) كتابك تذكر فيه المية التي كانت
للعدو — دمره الله — تليك في اليوم الذي واجهتموه فيه ^(٣) ، بعد أن كان لكم
صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر الأمور ^(٤) أبدأ أو كد وأهم : والعواقب
هي التي تحمد أو تذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أهى وأنتم ،
وإن لسان العذر بذاك لحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيغ مطلع بصير :
تواقفتهم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (١٧٢) جمعا ، وأحرى
أن تكونوا أشد عن حربكم منعاً ، وأقوى دونه دنعا ، فثبت وزلتهم ، وجد
ونكلهم ، وشد عقد عزيمته وحللتهم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد
وشماعة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة ^(٥) توليكم بين يديه بشيعة ^(٦)
هائلة ، ودعامتكم لولا انثنائه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتهم
من الرّجل ^(٧) الذي أسلمتموه للقتل ، وقررتهم ، ونصبتهم دريئة للرمح
ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلقوه

* صفحة ٧١ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الهامش الأمير من النص : كتاب السكائب الأجل . . . مروان
ابن أبي المصلح [رحمه الله عليه] . صح .

(٢) وفي الأصل : وافا .

(٣) إشارة إلى هزيمة « القلعة » التي ذكرناها .

(٤) وردت كلمة « أواخر » في آخر السطر مبدوءة بألفها ، وقد أمنت كلمة « الأمور »

ليستقيم السياق .

(٥) كذا في الأصل ، ولعل ميتها : « قصة » .

(٦) كذا في الأصل .

(٧) هذه الإشارة هامة . إذ من الثابت أن المراجعين تخلوا عن المطوعة وتركوا

يصلون منيران المدر وخدم في بعض المواقع .

من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصريت بها ظهوركم وأقفة قوكم ، عاقبتكم الله بما أنتم أهلها ، فأنتم أشجع الناس أققاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة ، فتي وأي وقت تفلحون ؟ ولأي شيء بعد ذلك تصلحون ^(١) ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دنع بفضله الأهم الأَكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعدُ أعطية أبصاركم ، وقصروا حل اشتراككم ، والبسوا منه ^(٢) جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاءً توفونه ويوماً عصيباً تلقونه ، فكرونا بعد هذه الهناة لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف (ب ٧٢) على أمر جامع ^(٣) ، فانكم لو [خلصت غيوبكم] ^(٤) حسنت سريرتكم ، واطمأنات على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا حدكم ، ولما ذهب ريحكم ولا أخل ^(٥) جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات .

وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدد يأتيه من خلقه ، والله يتطع به ، فلتضعوا على مسالكه عيوننا تكللاً ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فان كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتمكم إلى الصواب ، إنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

(١) هذه البارة تذكرنا .

(٢) في الهامش : منا ، صح .

(٣) هذه الإشارة تدل على أنه حدث في حيش المسلمين سنة ١١٠٠ قبل هذه الواقعة أو أثناءها ، والنائب أن يكون هذا الشئ قد وقع بين الأندلسيين والمرابطين ، وهذه ظاهرة متكررة كثيراً في تاريخ الجهاد في الأندلس ، وقد ظهرت بشكل واضح في مجز المسلمين عن الاستيلاء على حصن « لبيط » وتظهر في أسوأ صورها في هزيمة المسلمين الكبرى يوم « القباب » في عصر الموحدين .

(٤) يافض في الأصل ، وقد أضيفت هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٥) في الأصل : ولا أخل .

الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن علي بن يوسف بعد كتابه السابق بأربعة أيام فحسب ، وهو يتعلق بهزيمة « النلعة » التي دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسفر أن الخطاب الذي تشير إليه ، وهو الذي يصف فيه أبو الطاهر تميم ما جرى في يوم « النلعة » قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائد المراتبي أقر بالهزيمة وحاول تبريرها في خطابه إلى أميره ، ولكن علي بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره وكتب إليه يلومه في أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن الهزيمة دارت عليها في نصفه الثاني ، وهذه ظاهرة كثيرة التوارد في مواقع المراتبين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المراتبين كانوا يجمعون بحماس شديد فيزبون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريباً كاملاً فقد كان من الطبيعي أن تكون نسبة قتلهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صفوفهم تتخلخل ولا يستطيعون الثبات في نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها نتائج هامة فيما يتصل بموقف علي بن يوسف من الأندلس واهتمامه بمصيره في ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفما يتصل كذلك بأسلوب الخطاب الذي كان يجري عليه ديوان الأندلس المراتبي في مخاطبة القواد . وكاتب الخطاب هو أبو الخصال ، ونلاحظ أنه بالغ في إهانة المراتبين على عهد الأندلسيين في الكتابة عنهم ، وعند عبد الواحد المراكشي خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل يبلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب علي بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن « عالياً » لم يكن يقرأ هذه الكتب قبل إرسالها . وطبعاً كذلك أنه لم يكن ليفهم هذا الكلف اللغوي الذي كان كتاب الأندلس في ذلك العصر يسرفون فيه .

رسالة

وله إلى المذكورين ^(١) مجاوباً لهم بهزيمة
ابن رذير إياهم في « القساعة » ^(٢)

كتبنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه
وأسبغ عليكم عوارفه ونعمه ، من حضرة مراکش حرسها الله في الحادى عشر
من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسة ، غب ما وإفاننا
كتابكم الأثير ، مضمناً وصف اليوم الذى جرت به خزية المفادير ، فاستعرضناه
وتقرر لدينا جميع ما حواه ^(٣) ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازه
شأنه علينا ، لكن لا نخرج عن القضاء وحكمه ، ولا نحيد عن القدر وحتمه ،
ولن يرد حول محتال ما سبق في علمه ، وما ألونا -- وهو عز وجهه أعدل
الشاهدين -- جداً وعزماً وكدحاً لاعلاء كلمة الاسلام ، وحزماً يبذل الأموال
وتخير الرجال واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجميع بن الإيماش والايناس
في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد
وبلوغ مد () حة جهاد في كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً
ولم يكن التعذير () صير ^(٤) حاضراً عتيداً ، والله ينجى كل خائن ماين
باسخايطه تعالى دايئ جزاه ، ويرديه بُرد مضمسره ورداه ، ويوشك مقارضته
وإرداه بحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين
لأسرعنا بذلك مبادرين (١٧٤) ولما ثننا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

* صفحة ٧٣ ب مخطوط ٤٨٩ .

(١) أهل سرقسط: الذين كتبوا اليه (الوثيقة الثانية) .

(٢) كذا في الأصل ، وهي صيغة في « القلعة » . و « القلعة » على مقربة من عرناطة .

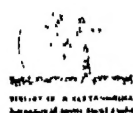
(٣) في الأصل : نواه .

(٤) خرم في المخطوط .

بنا عن معالجة نصركم تراح ولا توان . وقد جددنا الآن أحثّ نظر ونح
 نردفه بما يكون عليكم أنتم^(١) وأريد وأُسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم
 ويسكن مروعكم ، فإلنا والله يشهد هم سوى الذياء عنكم والدفاع ، والانفراد ،
 لذلك والاستجاء ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأنتم الاضطلاع ،
 والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

(١) في الأصل : ألم

٩٢ / ٧٠٦٤	رقم الإيداع
977 - 5365 - 02 - 3	الترقيم الدولي



General Organization of the Alexan-
dria Library (General)
Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠